مفهوم نظم الدولة في البحرين أنموذجا
"أمارة الجبور"
(١٤٤٠_١٥٢٥)

المدرس الدكتور
زينة حارث جرجيس
جامعة بغداد- كلية التربية للعلوم الإنسانية

The Concept of the State in Bahrain
"Jabour principality"
(1440-1525)

Dr.
Zinah Harith Jirjees

ملخص البحث

عرفت جزر البحرين منذ اكثر من خمسة الالف سنة ومثلت حلقة وصل بين الحضارات العظيمة الثلاث وكانت تمتد جغرافيا بين مناطق الاحساء والقطيف وارخبيل وصولا الى البصرة جنوب العراق، اكتسبت اهميتها الاقتصادية من خلال موقعها الجغرافي فضلا عن وجود اللؤلؤ الطبيعي ووفرة مياها العذبة وبسبب الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للبحرين، فقد طمع فيها الغزاة من داخل الخليج وخارجه والذين تمثلوا بالعثمانيين والصفويين والمماليك في مصر والبرتغاليين. وتوالت على حكم هذه الجزر عدة دول وأسر استمدت سلطتها ونفوذها من عشائرها وقبائلها في شبه الجزيرة العربية. ومن تلك الأسر التي حكمت البحرين ،ال الجبور ١٤٤٠-١٥٢٥، ويعد المؤسس الحقيقي والفعلي لتلك الإمارة الكبيرة هو زامل بن حسين بن ناصر بن جبر العامري عام ١٤٤٠م، وذلك بعد أن فرض سلطانه الفعلي على الأحساء والقطيف وأجزاء واسعة من إقليم نجد ،والذي يعد اول من وضع اسس مفهوم الدولة في البحرين ،ثم جاء من بعده ابنه الشيخ أجود بن زامل ، الذي يمثل عصره مرحلة ازدهار وقوة واتساع لإمارة الجبور التي بلغت إلى أقصى مداها في شبه الجزيرة العربية والخليج. وهو اول من حمل لقب (السلطان) وحققوا كل من تواكب على حكم البحرين الازدهار والتطور للبلاد الا ان جاء عام ١٥٢٥وهو العام الفعلي لزوال دولة الجبور بعد أحداث قتل الشيخ مقرن ودفنه في القطيف ، ولقد أفل نجم الجبور في سلطنتهم بالبحرين والقطيف حيث حل محلهم آل فضل وصار شيخهم راشد حاكماً على البصرة والقطيف والأحساء في آن واحد وبذلك انتهت دولة الجبور في البحرين بنهاية سلطانها.

Abstract

The islands of Bahrain have been known for more than five thousand years and have been a link between the three great civilizations. They have spread geographically between the regions of Al-Ahsa, Al-Qatif and the Archipelago and reached Basra in southern Iraq. Their economic importance has gained its geographical location, as well as the presence of natural pearls and abundant freshwater. Because the Bahrain's economic , strategic importance, invaders from inside and outside the Gulf, who represented the Ottomans, Safavids and Mamluks in Egypt and the Portuguese, were greedy for it. The rulers of these islands were led by several states and families whose power and influence were derived from their tribes in the Arabian . Of those families that ruled Bahrain, al-Jabour 1440-1525, the real and actual founder of that great emirate is Zamil bin Hussein bin Nasser bin Jabr al-Ameri in 1440 This was followed by his son Sheikh Ajoud bin Zamil, whose period represents a period of prosperity, strength and expansion of the Emirate of Jabour, which reached its maximum extent in the Arabian Peninsula and the Gulf. He was the first to take the title of (Sultan) and achieved all those who keep pace with the rule of Bahrain prosperity and development of the country, but came in 1525, the actual year of the disappearance of the Emirate of Jabour after the events of the killing of Sheikh Muqrin and buried in Qatif, and the star Jabbour in their Sultan in Bahrain and Qatif where he replaced them Al-Fadl and their Sheikh Rashid became ruler of Basra, Al-Qatif and Al-Ahsa at the same time, thus ending the Emirate of Jabour in Bahrain by the end of its power.

المقدمة

للبحرين جذور حضارية قديمة، تمد في أعماق التاريخ لأكثر من خمسة آلاف سنة ،حيث كانت مقرً الحضارات "دلمون" ثم "تايلوس" و"أوال" ،ووصفت تاريخيًا بأنها "أرض الخلود" أو "أرض الفردوس العظيم" نظر الى شهرتها بينابيع المياه العذبة وغابات النخيل ،وشكلت همزة وصل حيوية بين حضارات الفينيقيين في بلاد الشام ،و بلاد الرافدين في العراق ، و وادي النيل في مصر. وكشف علماء الآثار عن دلائل وشواهد تؤكد مكانة البحرين كمركز تجاري وبحري محور يبين الشرق والغرب.

جغرافيا :كان يطلق قديماً على مناطق الأحساء والقطيف وأرخبيل باسم جزر البحرين ، فقد كانت العرب تسمي الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية الممتد من البصرة جنوب العراق إلى عُمان باسم (الخط)، ويطلق عليه أحيانا (خط عبد القيس والبحرين) ، ويذكر ياقوت الحموي أن "البحرين أسم جامع لكل البلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان وقيل (هَجُر) قصبة البحرين"[١].

وذكر كثير من المؤرخين على أن ساحل كاظمة امتداد حتى بينونة هي ساحل الخط واعتبر المؤرخون والمصنفون العرب الأوائل أن منطقة البحرين بالمعنى الجغرافي المذكور، منطقة مستقلة من مناطق شبه الجزيرة العربية الخمس وهي (الحجاز، نجد، اليمن، عُمان، البحرين)[٢].

وظهرت القطيف كعاصمة لإقليم البحرين الغني بالزراعة والمياه العذبة، واستمرت كذلك لفترات تاريخية مختلفة. ثم تقلص اسم البحرين تدريجياً حتى انحصر في الأرخبيل الذي يضم (أوال) والجزر المحيطة بها في العصور المتأخرة. ويتكون هذا الأرخبيل من ثلاثة وثلاثين جزيرة وسط الخليج، وتبلغ مساحتها حوالي ٢٦٥ (مائتين وخمسة وستين) ميلاً مربعاً، وتبعد عن الساحل الفارسي بنحو (مائتين وخمسين ميلاً) وعن ساحل شبه الجزيرة العربية بثمانية عشر ميلاً، وكان لها شأناً تجارياً كشأن سيراف وهرمز وقيس عبر فترات تاريخية مختلفة.

وقد اكتسبت البحرين أهميتها الاقتصادية منذ القدم، فقد كانت تصدر اللؤلؤ إلى الممالك المجاورة لها. وقد اشتهرت هذه الجزيرة بجودة اللؤلؤ ووفرة المياه العذبة، وهذا بدوره مما جعلها محط أنظار القوى المجاورة بسبب المورد الاقتصادي المهم آنذاك، وهو اللؤلؤ. الطبيعي، الذي يتميز عن سواه من اللآلئ من حيث المواصفات والوزن، لأنه كما يقول أحد الرحالة الأجانب:

(أنصع بياضاً وأكثر استدارة غيره) [٣]، وبسبب تولي تجار هرمز أمر التعامل في اللؤلؤ البحريني عندما كانت تسيطر مملكتهم على واردات الخليج وصادراته في عصرها الذهبي، فقد وقع كثير من الخلاف والصدام بين حكام الأحساء والبحرين في القرن الخامس عشر الميلادي وبين مملكة هرمز[٤]

وبسبب الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للبحرين، فقد طمع فيها الغزاة من داخل الخليج وخارجه. وتوالت على حكم هذه الجزر عدة دول وأسر استمدت سلطتها ونفوذها من عشائرها وقبائلها في شبه الجزيرة العربية. ومن تلك الأسر التي حكمت البحرين، العيونيون في القرن الثالث عشر، والعصفوريون بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ثم أعقبت دولة العصفوريين، دولة آل جبور.

تأسيس دولة ال جبور في البحرين

جبور قبلياً تنحدر من نفس العشائر التي جاء منها (العصافرة) أيضاً، وينحدرون من عقيل بن عامر بن عبد القيس بن ربيعة، وعرفوا باسم (العمور أو العمایر) وينتسبون إلى بني خالد. وحين تدهور نفوذ أبناء عمومتهم العصافرة، صار الجبور يسيطرون على أفضل مصائد اللؤلؤ وبذلك تمكنوا من اقتصاديات البحرين. وبفضل تلك السيطرة الاقتصادية ووجود الثروات بين أيديهم فقد أصبحوا يتحكمون سياسياً بالمنطقة بعد ذلك لمدة تزيد على مائة وخمسين عاماً حتى مجيء البرتغاليين[٥]

وعندما طرق الغزاة البرتغاليون بسفنهم لأول مرة المياه العربية في سواحل عُمان والخليج العربي في مطلع القرن السادس عشر، لفت انتباههم النفوذ الواسع والقوة الضاربة التي حازتها الجبور، فتحدثوا عنهم في تقاريرهم بكثير من الاحترام الممزوج بالرهبة والخوف. وحين اطلعن ما كتبه البرتغاليون البو كيرك ــ عن الجبور، علق على ذلك بقوله: "إنه ليبدو حقاً بأن بني جبر كانوا خطرين إلى حد كبير، وأن أمرهم قد بقي حتى الآن لغزاً لم يحل"[٦]. وهذا مما يثير الدهشة أن دولة الجبور كانت هي الوحيدة من بين الكيانات السياسية العربية في المنطقة التي لم تستسلم للبرتغاليين.

والجبور أو آل جبر بن زامل، يعود أصلهم إلى قبيلة من قبائل نجد نزحت إلى الأحساء سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م. حيث استأثر بحكم الأحساء سيف بن زامل بن حسين العقيلي الجبري،

وبعد أن انتصر على آخر ولاة الجراونة بقايا القرامطة في الأحساء. وحين مات سيف بن زامل تولى الحكم في الأحساء بعده أخوه أجود بن زامل بن حسين الجبري الذي استنجد به السلطان سرغل بن نور شاه ملك هرمز ضد أخيه الذي نازعه الملك سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م. ولما أعانه أجود بن زامل في استرداد ملكه وهبه حكم القطيف والبحرين. وبعد وفاة أجود تولى ابنه سيف بن زامل الذي وسّع أطراف امارته على حساب جيرانه، فاستولى على عمان من أميرها سليمان بن سليمان بن نبهان سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م، وولى عليها أميرا من قبله هو عمر بن الخطاب الأباضي اما الابن الآخر لأجود بن زامل واسمه مقرن فقد حكم البحرين وعمان في النصف الأول من القرن العاشر الهجري. وفي عهده استولى البرتغاليون على البحرين سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م وقتلوه بعد عودته من الحج في تلك السنة[٧].

وينتسب الجبور الذين أسسوا الإمارة إلى جدهم الأكبر (جبر العامري) الذي كان قد قضى على ملك بني جروان وانتزع الأحساء من ملك هرمز، واتخذها قاعدة لتوسعاته في شرق شبه الجزيرة والبحرين وذلك في حدود عام ١٤١٧م. إلا أن المؤسس الحقيقي والفعلي لتلك الإمارة الكبيرة هو زامل بن حسين بن ناصر بن جبر العامري بين عام ١٤٣٩ ـ ١٤٤٠م، وذلك بعد أن فرض سلطانه الفعلي على الأحساء والقطيف وأجزاء واسعة من إقليم نجد. كما استطاعت قبائل بني عامر بقيادة الجبور في عهد زامل الجابري هذا، من التغلغل في مناطق عُمان الشمالية باعتبارها أكثر الأجزاء انفتاحاً على البحرين والأحساء وأقرب المناطق إليها، وبذلك كان الجبور آخر مجموعة قبلية استقرت في عُمان في القرن الخامس عشر الميلادي.

النشاط التجاري للدولة

ازداد النشاط التجاري بين سواحل بلاد البحرين والجاز إثر تدهور الأوضاع الأمنية بسبب انتشار الفوضى والاضطرابات والدمار في كل من العراق وإيران والأناضول وشمال الشام بعد حروب المغول ضد القوى القبلية في إيران وبينهم وبين الدولة العثمانية. وقد رفع هذا الوضع المضطرب من شأن ومركز إمارة الجبور الفتية في المنطقة وزاد بالتالي من قوتها وسيطرتها على طرق تجارة القوافل في شبه الجزيرة العربية فتطور مصدر رزقهم وازدادت فوائده المادية الكبيرة لإمارتهم، وربما كانت حاجة الدول المتحاربة في الشمال الشرقي حول

الخليج العربي لوسائل المواصلات في الحرب آنذاك (الخيول العربية والجمال) قد أدى إلى أن يجني بنو عامر فوائد مادية كبيرة من ذلك.[٨]

اهم حكام الجبور

شهد عهد الجبور مجموعة من الحكام قام على أكتافهم عملية تأسيس الدولة التي دامت حوالي قرن ونصف القرن من الزمن، وشهدت البلاد في عهد بعضهم تطوراً ونماء ورخاء في أكثر من مجال، وأهم هؤلاء الحكام:

أجود بن زامل العامري

يعد المؤسس الأول زامل بن جبر العقيلي الذي توفي في ٨٦٦هـ/ (١٤٦٠م)، ثم حكم الإمارة الشيخ أجود بن زامل، ويمثل عصره مرحلة ازدهار وقوة واتساع لإمارة الجبور التي بلغت إلى أقصى مداها في شبه الجزيرة العربية والخليج. وقد حمل أجود بن زامل لقب (السلطان) بسبب هذا الملك العريض، كما حمله أيضا من جاء بعده من أمراء الجبور. وكان هذا اللقب يعني آنذاك أن حامله هو حاكم مستقل يتمتع بكامل السيادة في بلاده.[٩]

وقد وصف المؤرخ (السمهودي) السلطان أجود ـ وكانت له صلة قوية به ـ بأنه "**رئيس أهل نجد ورأسها، سلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعت في جنسه صلاحاً وأفضالاً وحسن عقيدة، أبو الجود أجود بن زامل بن جبر**"[١٠]

وقد قام السلطان أجود بتقوية صلاته التجارية مع ساحل المليبار بالهند، وذلك ما نستشفه من بين ثنايا الرسالة التي أرسلها له الوزير عماد الدين حمود بن أحمد الشهير (بخواجه جيهان) وهو من أشهر رجال السلطنة البهمنية في الهند حوالي عام ١٤٧٠م.

وقد كانت فترة أجود البجري مليئة بالصراعات الداخلية القريبة من مملكته، كما حدث بين أفراد الأسرة الحاكمة في هرمز، واستعانة أحد الأخوة من أمراء هرمز بأجود لتثبيت حكمه، والصراع المستمر بين النباهنة والأئمة الأباضية في عهد ملكهم سليمان بن سليمان مما وفر للسلطان أجود الأجواء المناسبة لمد طموحه ونفوذه للخليج وعُمان الداخل، فأرسل قوات كبيرة إلى عُمان بقيادة ابنه سيف لمساندة الإمام عمر بن الخطاب الخروصي، الذي فقد ملكه عام ١٤٨٧م في صراعه مع النبهانيين. وقد نجحت قوات الجبور ـ كما يذكر ابن ماجد ـ في طرد زعيمهم سليمان وتنصيب الخروصي مرة أخرى إماماً على عُمان، وكان ذلك في نظير أن يقدم الأئمة جزءاً من حاصلات مناطقهم الزراعية إلى الجبور سنويا.[١١]

ولا أدلَ على قوة الجبور وانتشار نفوذهم مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي أكثر من مواجهتهم للبرتغاليين في اول دخولهم للمياه العربية في الجنوب العُماني في مسقط عام ١٥٠٧. فسارع أحد زعماء الجبور على رأس قوة كبيرة لنجدة المدينة. وكذلك إرسالهم قوة أخرى لنجدة صحار لما لها من صلات وعلاقة قوية بالداخل العُماني الذي كانت أجزاء منه تحت سيطرة الجبور فعلاً آنذاك. وكان لصحار أهمية في تجارة الخيول. ومما ساعد على امتداد نفوذ الجبور إلى عُمان الداخل وبعض أجزاء من الساحل هو نزاع الأئمة الأباضيين في عُمان في تلك الفترة. وتسجل لنا المصادر البرتغالية حينها انه وصلت لصحار قوة حربية قوامها سبعة آلاف مقاتل من قبيلة الجبور، انه لولا استسلام حاكمها المبكر للبرتغاليين لكان لوصول هذه القوة شأن آخر في تغيير وضع صحار.

وهاتان الحادثتان في مسقط وصحار تدلان بشكل واضح على أن الجبور ـ رغم إمكاناتهم ـ كانوا أول القوى العربية في المنطقة التي بدأت تقاوم الغزو البرتغالي منذ اللحظة التي وصل فيها للسواحل العربية لأول مرة. ولذا تحدث البرتغاليون بتعظيم وأهمية عن هذه الدولة وهم في بداية مشروعاتهم العسكرية لضرب تجارة العرب في الخليج العربي. ويذكر البوكيرك في مذكراته اليومية أثناء فترة غزو الجنوب العُماني "أن مسقط كانت جزءا من مملكة هرمز، أما الجزء الداخلي من البلاد فيخضع لحاكم يدعى بن جابر الحاكم. وتمتد سلطة ابن جابر إلى عدن، ومن الشمال تمتد إلى ساحل بحر الخليج، ومنه إلى حدود مكة"[١٢]

وهذا ما يؤكده مؤرخون برتغاليون آخرون مثل باروس الذي يصف الشيخ ابن جبر بأنه كان يحكم المساحة التي تمتد من البحرين إلى ظفار في عُمان وهي في حدود خمسمائة فرسخا ،وربما كانت الحقيقة وراء هذا القول ـ خصوصاً وأن البرتغاليين لا يعلمون الكثير عن داخل شبه الجزيرة العربية ـ مرده إلى أن الجبور كانوا يغيرون على هذه المناطق ومنها موانئ ساحل عُمان ويجبرونها على دفع نوع من الضريبة أو الأتاوة لهم.

وقد تزامن وصول الغزو البرتغالي للجنوب والخليج العربي وانتشاره في تلك المناطق والبحار مع وجود السلطان (محمد بن أجود) على رأس السلطة في إمارة الجبور. وكان لابد أن يترك اضطراب التجارة في المياه الشرقية أثره على الوضع السياسي والاقتصادي لإمارة الجبور في أعقاب ذلك الغزو، إذ كانت الأحداث أكبر من أن تستطيع هذه الدولة أن تتغلب عليها

وتصمد في وجهها، خصوصاً وقد أعد البرتغاليون حملتين ضد هرمز بعد عام ١٥٠٨م، كانتا على التوالي في عامي ١٥١٤ ــ ١٥١٥م، استطاعوا بعدها إحكام السيطرة على هذه المملكة وممتلكاتها وموانئها، وصاروا يتحكمون في مداخل الخليج العربي وبعض أجزاء من سواحله. وبذا أصبح البرتغاليون في صراع مباشر مع الجبور. وبما عرف عن البرتغاليين من تفوق في قوتهم البحرية، وباتباعهم حيل سياسية واضحة بالتخفي وراء ادعاءات مملكة هرمز بحقوقها في البحرين والقطيف، تراجع الجبور وضعفت قوتهم أضف إلى ذلك، تلك المصاعب التي واجهت الدولة في عهد محمد بن أجود حيث أنها كانت تقع عند حدود القوى الإسلامية الثلاث الكبرى المتصارعة آنذاك في المشرق الاسلامي في وقت ظهور الغزو البرتغالي، وهي (الصفويين ــ العثمانيين ــ المماليك). وكان لابد للجبور أن يحددوا موقفاً مما كان يدور حولهم بين هذه القوى من حروب وهزائم وانتصارات، حيث أن الحياد الإيجابي لم يكن ينفع في ذلك الوقت. وغالباً فقد كان الجبور ــ مع عدم وجود معلومات مؤكدة حتى الآن ــ يميلون للتعاون والاتصال بالعثمانيين، خصوصاً بعد خضوع الحجاز للعثمانيين عام ١٥١٧م، بعد فتح مصر وسقوط الدولة المملوكية.(١٣)

وهنالك عدة ادلة على وجود تعاون بين الدولة العثمانية وبين امارة الجبور في البحرين وهذه الادلة هي:

١ــ وجود عشرين جندياً تركياً (التفنكَجية) كما كان يطلق عليهم آنذاك، مع جيش السلطان (مقرن الجبري) حين تصديه للغزو البرتغالي على البحرين ولكن كما يبدو فأن دورهم اقتصر على تدريب جيش الجبور على الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع.

٢ــ وجود ارتباط غير مباشر بين العثمانيين والجبور في قيام علاقة المصاهرة بين شريف مكة الذي يدين بالولاء للعثمانيين وبين زعيم الجبور مقرن بن زامل حيث زوج الأخير إبنته لهذا الشريف.

وسوف نبدأ الحديث من عام ٩١٣هـ وهو العام الذي تلى حج أجود بن زامل الذي أرخه بعض أعلام التاريخ المعاصرين لهذا الحدث، تبدأ أحداث جسام خيمت على مياه الخليج كان أعظمها هو وصول الغزاة البرتغاليين حيث بدأ مرحلة عصيبة لم يشهد أبناء الخليج مثلها.

مقرن بن زامل الجبري: وهو الحاكم الخامس في سلالة أسرة الجبور الحاكمة في شرق الجزيرة العربية وعُمان الداخل، وقد صار مقرن سلطاناً على الجبور في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. ويعتقد أنه ربما لجأ إلى العنف في بعض الأحيان ليصحح وضع الإمارة المعوج في ظل وجود أعمامه الضعاف الذين اقتسموا بعض الأملاك، وخاله صالح بن سيف الجبري الطامع في الحكم. ويبدو أن صالحا كان قد استولى على الأحساء لفترة من الوقت بمساعدة بعض القبائل المناهضة لمقرن، ولذا سمي (السلطان)ويبدو كذلك أن السلطان مقرن استطاع بقوته وحنكته السياسية أن يحافظ على وحدة البلاد وعلى هيبة الجبور، فقد نجح في إخضاع قبائل كبيرة كانت متمردة، كان سبب ذيوع صيت مقرن وانتشار شهرته واسمه بين آفاق شبه الجزيرة العربية والخليج هو نجاحه في إفشال هجوم (خواجه عطار) وزير بلاط هرمز على البحرين في نفس عام تولي مقرن السلطة (١٥١١م). وقد وصف ابن إياس مقرناً بأنه "أمير عربان بن جبر، متملك جزيرة ما بين النهرين (البحرين) إلى بلاد هرمز الأعلى، سيد سيد عربان الشرق على الإطلاق."[١٤]

وقد قامت عدة حملات برتغالية في عهد مقرن لغزو البحرين منذ عام ١٥١٤م حين حاول بيرو البوكيرك ذلك وفشل، ثم الحملات اللاحقة حتى حملة عام ١٥٢١م التي أدت إلى سقوط إمارة الجبور في البحرين والى تدهورها في الأحساء بعد ذلك.

العلاقة بين دولة الجبور ومملكة هرمز

كان للعلاقة ما بين البحرين أو إمارة الجبور تحديداً، وبين مملكة هرمز وحكامها في القرن الخامس عشر الميلادي، أثر كبير في الأوضاع السياسية والاقتصادية بمنطقة الخليج العربي وقد أدى تدهور تلك العلاقة ووصولها إلى قمة مراحل التنافر، إلى احتلال البحرين من قبل البرتغاليين والهرامزة معاً عام ١٥٢١م.

لابد أن نشير هنا إلى أنه منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، كانت كل من القطيف والأحساء تدينان بالتبعية لمملكة هرمز، في حين أصبحت جزيرة البحرين تُحكم من قبل حكام يعينون مباشرة من قبل ملوك هرمز. وظل ملك هرمز (قطب الدين فيروز شاه تهتمن) الذي حكم حتى ١٤١٧م، يلقب بملك ((هرمز والبحرين

والحساء والقطيف)). وهذا الحال استمر ما دام لملوك هرمز هيبتهم ونفوذهم في المنطقة وكان ذلك يساعد على تثبيت الأوضاع السياسية في بلاد البحرين أيضا.[١٥]

نهاية السلطان مقرن بن زامل الجبري١٥٢١م

تولى مقرن بن زامل زمام السلطة في إمارة الجبور في حدود سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م الذي تزامن مع بداية ظهور أطماع الصفويين والهرمزيين والبرتغاليين في بلاده، والتي كانت تضم البحرين والأحساء والقطيف، إضافة إلى أجزاء واسعة من نجد وعمان، وقد تزايدت تلك الأطماع بعد أن رافقتها مخاوف عدة من تصاعد قوة مقرن واتساع نفوذه.

ولم يكن آل شبيب، وهم في البصرة، بمعزل عما يجري في إمارة الجبور، بل لعلهم متورطين في بعض أحداثها. فبعد أن أطاح مقرن بن زامل بحكم خاله السلطان صالح، لجأ الأخير، على أرجح تقدير إلى البصرة كما يرى المؤرخ الحميدان، وطلب مساعدتهم .ولعل المعارك التي خاضها السلطان المعزول ضد السلطان الجديد مقرن، كانت بدعم من آل شبيب، وذلك بالإيعاز إلى حلفائهم الأقوياء، كقبيلة بني خالد وبني لام (الفضول)، بتقديم المساعدة إليه, وإذا ما كان قد حدث هذا فعلاً، فلعله يفسر لنا سبب قيام أسطول السلطان مقرن بمهاجمة المراكب التجارية المترددة على البصرة، إن لم يكن هناك سببا آخر غير ذلك.[١٦]

لم يقف آل شبيب في تآمرهم على السلطان مقرن عند هذا الحد، بل قاموا بمحاولة التقرب من البرتغاليين والتحالف معهم ضده، حيث نجد أن الشيخ محمد بن مغامس الفضلي، سلطان البصرة يبعث برسالة إلى دي سكويراDe Sequeira حاكم الهند البرتغالية (١٥١٨ ـ ١٥٢٢م) سنة ١٥١٩م (٩٥٢هـ) تتضمن استعداده لدفع مبلغ ١٢٠٠ لك أشرفي إذا ما ساندوه في الاستيلاء على البحرين والقطيف، واللتين سوف يعترف بتبعيتهما لملك البرتغال. وقد قام دي سكويرا بدوره بإرسال تلك الرسالة إلى العاصمة البرتغالية لشبونة للحصول على موافقة ملك البرتغال عليها.

ومما يجدر ذكره، أننا نجد صعوبة في معرفة أهداف سلطان البصرة ودوافعه من تلك الرسالة بشكل دقيق، إلا أنها لاتعدو أن تكون محاولة منه للرد على ما كان يقوم به السلطان مقرن من محاولات للإضرار بتجارة البصرة البرية والبحرية. أو أن يكون أوسع من هذا وهو الهيمنة بشكل مباشر على أهم مورد للثروة في تلك البلاد، وهما الخيول واللؤلؤ. يضاف إلى ذلك

موارد طريق الحج الأحسائي. وإذا ما تحقق لآل شبيب ذلك فإنهم سيكونون، دون شك، من أكثر القوى ثراء في المنطقة. على ان سلطان البصرة كان يدرك سلفا.

شدة طمع الهرمز يين في تلك البلاد وتكالبهم في الاستيلاء عليها، فهو يريد، دون شك إحباط مساعيهم هذه بأن يسبقهم إليها لكن رسالة سلطان البصرة هذه ربما كشفت للبرتغاليين أطماعه في البحرين والقطيف، والتي تمثل في الواقع، خطورة شديدة عليهم، إضافة إلى خطورة السلطان مقرن نفسه، مما دفع بهم إلى الإسراع في قطع الطريق عليه بضرب الاثنين معاً، وذلك بغزو تلك البلاد بالتعاون والتنسيق مع الهرموزيين والتي انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م وقتل سلطانها مقرن.

لذا فإن رد ملك البرتغال الذي نقله القبطان دي ميراDe Meirat إلى سلطان البصرة، لم يصل إلا في شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٢١م/ ٩٢٧هـ. ويبدو أن الرد قد تضمن إبلاغ سلطان البصرة بقرب القيام بحملة عسكرية هرموزية ــ برتغالية مشتركة ضد السلطان مقرن الجبري، وهو ما كان قد تم فعلاً في الشهر المذكور أعلاه.

لقد كان لتلك الحملة آثاراً عميقة على كيان الجبور. فبعد قتل سلطانهم القوي مقرن وانتزاع أغنى ممتلكاتهم، جزيرة البحرين وميناء القطيف، الأمر الذي أربك أوضاعهم على الأصعدة كافة، خاصة بعد أن أظهر سلاطينهم الذين تولوا حكم الأحساء، عقب هذا الحدث الخطير، عجزهم وعدم جدارتهم على انتشال البلاد من وهدتها التي هي فيه، مما أفقد إمارتهم تلك المكانة البارزة التي كانت عليها في السابق وكان طبيعياً أن تبرز الخلافات والانقسامات داخل البيت الحاكم، وأخيراً لابد أن نشير إلى أن النزاع بين آل شبيب وابن عليان الطائي، والذي كان قائماً منذ عدة سنوات، ليس هو بالخطر الداهم الذي قد يحدق بالبصرة.

إن آل شبيب حزموا أمرهم وقاموا بالتدخل عسكرياً في شؤون الأحساء بقيادة راشد بن مغامس، في أوائل عام ٩٣١هـ/ أواخر عام ١٥٢٤م أو أوائل العام الذي تلاه، مما يحمل على الاعتقاد بأنَّ توقيته كان مرتبطا أشد الارتباط بالأوضاع السائدة في المنطقة، والتي أشرنا إليها، إضافة إلى أوضاع الجبور أنفسهم. إلا أننا لا نملك معلومات كافية، مع الأسف، عن خطط هذا التدخل، ولا عن الكيفية التي تم بها.إن خطط التدخل قد أعدت بتكتم شديد، ومسيرتها لم تكن توحي بمقصدها وهدفها لحين وصولها إلى الأحساء، وانضمام جميع المشاركين بها

والمتحمسين لفكرتها. وهنا يقتضي القول، أنه من المستبعد أن يكون زعماء الجبور قد فكروا فيما سوف يقدم عليه الشيخ راشد عقب ذلك، حيث يحتمل أن كرههم الشديد لحاكمهم ولهفتهم إلى رؤيته وقد أطيح به، حجبت عنهم تصور ما سيحدث لبلادهم مستقبلاً. في حين كان الشيخ راشد من جهته، قد حزم أمره وبيَّت ما كان ينويه وأعد الوسيلة التي يعتزم اتباعها،وهو ما نفذه فعلاً، ونجح فيه قبطان هرموز أي حاكمها البرتغالي كريستوفاو دي مندوز(١٥٢٧ ــ ١٥٣٠)م كان يشير الى سلوك راشد السياسي حينما تحدث عنه في رسالته لملك البرتغال:

واصفاً إياه بقوله: "إنه قد تمكن بدهائه من الاستيلاء على كل البلاد التي هي بحوزته الآن"[١٧]

نهاية إمارة الجبور سنة ١٥٢٤/١٥٢٥م

يعتبر عام ٩٣١هجرية أي عامي ١٥٢٤/ ١٥٢٥م هو العام الفعلي لزوال إمارة الجبور كما ورد في أحداث ومجريات قتل الشيخ مقرن ودفنه في القطيف سنة ٩٢٧هجرية، ولقد أفل نجم الجبور في سلطنتهم بالبحرين والقطيف حيث حل محلهم آل فضل وصار شيخهم راشد حاكماً على البصرة والقطيف والأحساء في آن واحد وبذلك انتهت امارة الجبور في البحرين بنهاية سلطانها وخلال استعراضنا لمجريات الاحداث لم نجد للدولة العثمانية أي تدخل عسكري واضح خلال هذه الحقبة التاريخية ولم نجد سوى سوى معلومة تاريخية تشيد ان في هذا العام وصل إبراهيم باشا الصدر الأعظم إلى مصر في أوائل عام ٩٣١هـ ــ ١٥٢٥م على رأس قوة عثمانية كبيرة إثر عصيان واليها أحمد باشا، وبقي هناك فترة طويلة نسبياً، الأمر الذي جعل البرتغاليين يتوجسون من احتمال خروجه على رأس حملة بحرية من هناك تستهدفهم في بحر العرب والخليج الامر الذي اثار قلقهم وبدات استعداهم العسكرية لمواجه العثمانيين [١٨].

الخاتمة

توالت على حكم هذه الجزر عدة دول وأسر استمدت سلطتها ونفوذها من عشائرها وقبائلها في شبه الجزيرة العربية، وكان من اهم هذه الاسر هم ال الجبور الذين اسسوا في البحرين اول نظام سياسي عرف معنى اسس الدولة الحديثة ولم يشمل البحرين فقط بل شمل عدة اجزاء من شرق الجزيرة العربية وبرز عدة قادة اشهرهم السلطان مقرن بن زامل الجابري الذي ذاع صيته في قيادة الجزيرة العربية ولكن وبسبب الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للبحرين، فقد طمع فيها الغزاة من داخل الخليج وخارجه .

حيث ان الوضع السياسي والاقتصادي لإمارة الجبور في أعقاب الغزو البرتغالي ساء الى درجة ادى الى انهيار هذه الدولة ، إذ كانت الأحداث أكبر من أن تستطيع هذه الدولة أن تتغلب عليها وتصمد في وجهها، خصوصاً وقد أعد البرتغاليون حملتين ضد هرمز بعد عام ١٥٠٨م، كانتا على التوالي في عامي ١٥١٤ ــ ١٥١٥م، استطاعوا بعدها إحكام السيطرة على هذه المملكة وممتلكاتها وموانئها، وصاروا يتحكمون في مداخل الخليج العربي وبعض أجزاء من سواحله. وبذا أصبح البرتغاليون في صراع مباشر مع الجبور.

وبما عرف عن البرتغاليين من تفوق في قوتهم البحرية، وباتباعهم حيل سياسية واضحة بالتخفي وراء ادعاءات مملكة هرمز بحقوقها في البحرين والقطيف، تراجع الجبور وضعفت قوتهم أضف إلى ذلك، تلك المصاعب التي واجهت الدولة في عهد محمد بن أجود حيث أنها كانت تقع عند حدود القوى الإسلامية الثلاث الكبرى المتصارعة آنذاك في المشرق الاسلامي في وقت ظهور الغزو البرتغالي، وهي (الصفويين ــ العثمانيين ــ المماليك).

هوامش البحث ومصادره

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان، الجزء الأول، مجلد الرابع، دار صادر للطباعة ، الطبعة الثانية، بيروت:، ١٩٩٥،،ص٤١٢.

(٢) يوسف البحراني لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، تحقيق وتعليق السيد محمد صادق بحر العلوم،: مكتبة فخراوي، الطبعة الأولى، البحرين ، ٢٠٠٨

(٣)طارق الحمداني ،الرحلة البرتغاليون في الخليج العربي ،مجلة الوثيقة ،العدد ١٥،السنة السابعة ،البحرين،١٩٨٩،ص١٦٣.

(٤) محمد علي التاجر ، عقد اللآل في تاريخ أوال، إعداد وتقديم إبراهيم بشمي،: مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، البحرين،١٩٩٤،ص١١.

(٥)فضل العامري ،ابن مقرن وتاريخ الامارة العيونية في بلاد البحرين ، (د.ت)،الرياض،بلا،ص١٠٨

(٦)طارق الحمداني ،المصدر السابق،ص١٦٥.

(٧)المصدر نفسه ،ص١٦٦.

(٨) شهاب الدين أحمد بن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن، (دمشق، ١٩٧١)، ص٣٠٢

(٩)عبد اللطيف ناصر الحميدان ،التاريخ السياسي لامارة الجبور في شرق الجزيرة العربية ،مجلة كلية الاداب ،العدد ١٦ ،السنة١٤،جامعة البصرة ،١٩٨٠،ص٤٠.

(١٠) علي ابا حسين ،الجبور عرب البحرين وعربان الشرق ،مجلة الوثيقة ،العدد ٣،السنة ٢٣،البحرين ،١٩٨٣،ص٨٠.

(١١)فضل العامري ،المصدر السابق ،ص١١٠.

(١٢) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين ١٥٠٧-١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، الطبعة الأولى،العين الامارات العربية المتحدة ،٢٠٠٠،ص١١٠.

(١٣)علي ابا حسين ،المصدر السابق ،ص٨٨.

(١٤)عبد اللطيف ناصر الحميدان ،المصدر السابق ،ص٤٤.

(١٥)محمد حميد السلمان ،المصدر السابق ،ص١١٢.

(١٦)المصدر نفسه ،ص١١٥.

(17)SalihOzbaran, The Ottoman Turks in the Persian Gulf, 1534 – 1581. Journal of Asian History; Vol. 6. 1972. p. 45 - 87 .

(١٨) عبد اللطيف الحميدان، (إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية)، مجلة كلية الآداب، العدد ١٥، السنة ١٣، جامعة البصرة، ١٩٧٩، ص١٠٦ ــ١٠٨.